الكرمل الجديد

كلمة أولى

رحل عن عالمنا، في الآونة الأخيرة، علمان سطر كلاهما صفحات مضيئة في كتاب ثقافة التنوير والحداثة والتحديث العربية: أنور عبد الملك، وغسّان تويني. يأتي رحيلهما في زمن شهد انفتاح الحقل السياسي العربي، الذي حطّمت الثورات العربية أقفاله، وفي ظلِ آمال عريضة لا يجاريها في الجموح سوى مخاوف لا تقل عنها حجماً أو جموحا.

لن نتمكن من فهم ما لحق بالمجتمعات العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، دون الاستعانة بالأدوات التحليلية والمفاهيم، التي بلورها عبد الملك، وحاول توظيفها في تحليل المجتمع والدولة في مصر بعد العام ١٩٥٢.

ولن نتمكن من فهم ما مكّن لبنان من البقاء على الرغم من جراح كثيرة، دون العودة إلى خصوصية التجربة السياسية والصحافية لغسان تويني، المستمدة من إدراك عميق وصحيح لمعنى لبنان، وخصوصية تجربته الاجتماعية والثقافية.

وستبقى مفردات هذا الإدراك، كما تجلت في مسيرة «النهار» وفي سيرة صاحبها، شرطاً من شروط خروج لبنان من أزمته من ناحية، وحامية لدوره الثقافي في المحيط العربي من ناحية ثانية.

كان كلاهما، بالمعنى الفكري، تلميذاً نجيباً لتقاليد الحركة الاستقلالية العربية، في الفترة التي أطلق عليها البرت حوراني تسمية «العصر الليبرالي العربي»، أي قبل الاستيلاء عليها من جانب أنظمة الطغاة، وصعود أيديولوجيا الصحراء مرفوعة على ساعد الثروة النفطية، وتصحير العالم العربي بالمعنى السياسي والثقافي والأخلاقي والاجتماعي.

دفع كلاهما ثمن الدفاع عن تلك التقاليد، وكان الثمن فظيعاً ومُروّعاً في بعض الأحيان. ومن حسن الحظ أنهما شهدا قبل الرحيل بقليل أهم التحوّلات في تاريخ العرب الحديث. تحوّلات تفتح أفقاً جديداً، بقدر ما تُطلق إشارات مُقلقة.

وليس من قبيل المجازفة القول إن القيم التي جسّدها أنور عبد الملك وغسان تويني، هي القيم نفسها، التي تخشى قوى الثورة المضادة من وجودها في مكوّنات العقد الاجتماعي الجديد، الذي تسعى لاحتكار صياغته.

ولهذا السبب، يمكن القول إن ثقافة التنوير والحداثة والتحديث العربية، ليس في مصر ولبنان وحسب، ولكن في كل مكان آخر، خسرت بغياب هذين الرجلين علمين من أعلامها، ومصدرين من مصادر إلهامها. والعزاء أن في كل ما تركاه من سيرة ومسيرة ما يحميهما من الغياب.